

الدرس : 57 - سورة الأعراف - تفسير الآيات 191 - 196، التوحيد هو أساس العقيدة السليمة - والتوحيد هو من فحوى القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة الأعراف، ومع الآية الواحدة والتسعين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَنْبِغُونَ لَهُمْ نَصِراً أَوْ لَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُواكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) ﴾

[سورة الأعراف]

أيها الإخوة، لا شك أن فحوى هذه الآيات متعلقة بالتوحيد، ولا بد من أن أردد لآلاف المرات أن ديننا دين توحيد، وأن التوحيد هو الدين كله، بل إن التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) ﴾

[سورة الأنبياء]

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً :

أيها الإخوة، التوحيد كفكرة سهل، إدراك فكرة التوحيد سهل جداً، أما أن تعيش التوحيد هذا يحتاج إلى جهد كبير، أن تعيشه لا أن تفهمه، الفرق بين أن تفهم الفكرة، وبين أن تعيشها ساوضحه بالمثل التالي:

طالبان على مقعد الدراسة، الأول مؤمن، مستقيم، طاهر، عفيف، دخله حلال، كبير وتزوج، وعنده بيت متواضع، وصديقه الثاني غير منضبط، إيمانه ضعيف جداً، متفلت، معظم دخله من المال الحرام، لكن له دخل فلكي، بيت فخم، ومركبات، وسفر، وإقامة، وثياب غالية، وطعام نفيس، الأول إذا قرأ قوله تعالى:

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)﴾

[سورة الأحزاب]

الآية واضحة تمام، لكن لمجرد أن يقول: صديقي الغني هنيئاً له، هو ما عاش هذه الآية، فهم معناها لكن ما عاشها.

فترة ثانية: ديننا دين التوحيد، التوحيد: ألا ترى مع الله أحداً، أن ترى يد الله تعمل وحدها، أن ترى أن كل شيء وقع إرادته الله، وأن كل شيء أرادته الله وقع، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

التوحيد أن ترى أن الله عز وجل بيده كل شيء :

التوحيد أن ترى أن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَن يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)﴾

[سورة الفتح]

التوحيد أن ترى أنه:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)﴾

[سورة الأنفال]

التوحيد أن ترى أنه:

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84)﴾

[سورة الزخرف]

التوحيد أن ترى أنه:

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ بِأَلْفِ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَبْرٍ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)﴾

[سورة الكهف]

التوحيد أن ترى أنه:

﴿وَاللَّهُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)﴾

[سورة هود]

التوحيد أن ترى أن الله سبحانه وتعالى:

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ (3)﴾

[سورة غافر]

عدم استطاعة الكافر فعل شيء إلا بإرادة الله عز وجل :

هو الرفع وحده، هو الخافض وحده، هو المعز وحده، هو المذل وحده، التوحيد أن ترى أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله، التوحيد أن ترى أن:

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)﴾

[سورة الزمر]

لا يوجد شيء متفلت، التوحيد أن تؤمن أن الكافر مهما يكن قوياً لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا سمح الله به لحكمة بالغة بالغة بالغة، عرفها من عرفها، وجعلها من جعلها.

التوحيد أن ترى أنه بيده:

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَلِيقٌ﴾
وَالْأَمْرُ يُجْتَابُكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)

[سورة الأعراف]

أحياناً دولة عظمى تصنع طائفة وتبعتها، الدولة المالكة للطائرة قد تقصف بها مدينة، نقول: صنعت في هذا البلد لكن أمرها لمن اشتراها، أما عند الله: **﴿بَلِّغْ خَلْقَ وَالْأَمْرُ﴾** (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل).

التوحيد فكرة سهل جداً، أما التوحيد أن تعيشه، ترى بعينك قوى الطغيان تقصف، وتضرب، وتهدم، وتتججج، وتتغطرس، وتستعلي، وتكذب، وأن ترى أن الله - عز وجل - سمح بهذا كله لحكمة سوف نراها إن شاء الله فيما بعد.

إيجابيات الأحداث التي مرت بالمسلمين تحتاج إلى أناس متعمقين في الفهم :

والله أيها الإخوة، إن سلبيات الأحداث يعرفها جميع الناس، ولا تحتاج إلى بطولة في إدرائها، صار قصف، هدموا المنازل، قتلوا الأبرياء، قتلوا الأطفال، سلبيات الأحداث معروفة عند الجميع، يكفي أن ترى الصورة، وانتهى الأمر، لكن إيجابيات الأحداث تحتاج إلى أناس متعمقين في الفهم.

مثلاً: قبل عشر سنوات غير مسموح بالعالم الإسلامي أن تقول كلمة جهاد، غير مسموح بالعالم الإسلامي بأكمله، حتى مرة ملك في خطابه قال: جهاد، يأتي شخص من أطراف الدنيا ليسأله ماذا أردت من هذه الكلمة؟ فاضطر أن يقيم حفلاً مُفتعلاً ويقول: الجهاد جهاد النفس والهوى، أما الآن تستمع إلى القادة يتحدثون عن الجهاد، هذا إنجاز كبير، الجهاد دخل في حياتنا اليومية، الجهاد رآنا آثاره، قلب موازين القوى كلها.

فئة مؤمنة طاهرة مستقيمة، هذه الفئة تستحق أن نقبل رأسها، وبديها، وأن نقبل الأرض التي تطؤها قدمها، هذه الفئة أرى جيش في المنطقة، بل أرى جيش في العالم، واحد وعشرون يوماً لم يتحقق أي هدف، هم فقراء، جائعون، محاصرون لسنتين.

إذا دخل الإيمان بتغيير جميع المعادلات كلها، هذا التوحيد، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، أن ترى أن ﴿بِئْسَ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هناك حكمة كبيرة، والله أيها الإخوة، أنا مؤمن - هكذا أقول دائماً - بكل ذرة من دمي، بكل قطرة من دمي، وبكل خلية في جسي، أن الله لا يسمح للطغاة في الأرض أن يكونوا طغاة إلا ويوظف طغيانهم لخدمة دينه والمؤمنين، من دون أن يشعروا، ومن دون أن يريدها، وبلا أجر، وبلا ثواب.

أنا أتمنى عليكم أن تدعوا السلبيات، أن تفكروا في الإيجابيات، ما الذي حدث بالعالم الإسلامي؟ ما هذه الوحدة التي جمعتنا؟! ما هذا الذوبان في بوتقة واحدة؟! ما هذا الإيمان الذي تحرك؟! ما هذا البذل الذي كان؟! شيء لا يصدق! .

الأحداث تكشف المحسن من المسيء :

أيها الإخوة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَبِيرٌ لَّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۗ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)﴾

[سورة النور]

الإفك: أن تُنتهَم السيدة عائشة زوجة رسول الله بأثمن شيء تملكه امرأة؛ عفتها، جاء القرآن :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَبِيرٌ﴾ لأنه حديث الإفك فرز المؤمنين، ظهر المؤمنون الصادقون الذين ظنوا بأنفسهم خيراً، وظهر المنافقون الذي روجوا هذه الأخبار.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَمَنِ اتَّبَعَ مَا نُزِّلَ بِهِ مِن رَّبِّهِ ۗ إِنَّهُ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَتَنقَرُوا لَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179)﴾

[سورة آل عمران]

وما كان الله - قياساً على ذلك - ليذر الدول على ما هي عليه: **﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾**

الفتن تفرز الناس إلى قسمين ؛ مؤمن و مجرم :

نعوذ بالله من الفتن، لكن إذا جاءت الفتنة يجب ألا نذمها، لأنها تكشف المنافقين، وتكشف الكاذبين، ويفرز الناس إلى قسمين، والآن أقولها صراحة: اللون الرمادي في الأرض اختفى، بقي الأبيض والأسود، ولي أو مجرم، مجرم، مؤمن، مستقيم، طاهر، عفيف، ورع، يضبط حواسه، وجوارحه، ودخله، وبيته، وزوجته، وبناته، وإنسان مجرم متقلت، هذا الذي حصل، يعني كيف جمعنا هذه الآلام؟ وكيف وصلت إلى أعماقنا؟ وكيف وحدتنا؟ وكيف كُشف أعداؤنا؟ كيف أصبحوا في مزبلة التاريخ؟ والله لمئة عام قادم، بل لمنتمي عام قادمة لا يستطيعون أن يقولوا كلمة عن حضارتهم، حتى الغرب الذي سكت عنهم.

الساكت عن الحق شيطان أخرس :

الله - عز وجل - ذكر أن قوم صالح عقروا الناقة :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14)﴾

[سورة الشمس]

بالجمع.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)﴾

[سورة الشمس]

قال ﴿فَعَقَرُوها﴾ والذي عقروها واحد، لأنهم سكتوا جميعاً عداً الله سكتهم مشاركة في الجريمة.

مرة سيدنا عمر، قال أحدهم بمدحه: والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، يا لطيف! فأحد فيهم النظر، فخافوا، فقال أحدهم: لا والله، لقد رأينا من هو خير منك، قال: من هو؟ قال: الصديق، أمامه عشرون، واحد منهم قال: الصديق خير منك، فقال: كذبتهم جميعاً، ما تكلموا، كذبوا بسكوتهم، والساكت عن الحق شيطان أخرس. هل سمعتم تنديداً من الدول العظمى؟ دعك من أمريكا، بريطانيا، أستراليا، فرنسا، سويسرا، هل سمعتم استنكاراً؟ تنديداً؟ من أجل أسير واحد يأتي رئيس أمريكي سابق إلى بلادنا ويوزر أسرة هذا الأسير، وأحد عشر ألفاً وثمانمئة أسير لنا عندهم ما خطر في باله أن يطيب قلبهم بكلمة، ما لم تكفر بالطاغوت لن نؤمن بالله، والدليل:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ سَبَّ نَبِيِّ الرَّشْدِ مَنْ لَعِيَ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)﴾

[سورة البقرة]

الله عز وجل يعلم و يقدر و يعنيه ما يجري في العالم من أحداث :

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن تؤمن أن الذي وقع وراءه حكمة بالغة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها، بمنطق البشر الذي شرد عن الله هذا مات، أما عند الله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَوِّقُونَ (169)﴾

[سورة آل عمران]

لذلك أيها الإخوة، نحن في آيات التوحيد، ينبغي أن تكون موحداً، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد كفكرة إدراكها سهل جداً، أما أن تعيشه، أن تكون موقناً أن الله بيده كل شيء، وأنه لا يستقيم إيمانك إن توهمت أن الله لا يعلم ما يجري، ولا يستقيم إيمانك إن توهمت أن الله لا يقدر، ولا يستقيم إيمانك إذا توهمت أن الله لا يعنيه ما يجري، يعلم، ويقدر ويعنيه، وسمح بالذي وقع .

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدُوِّ الْفُصُولِ وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئِمَّ فِي الْمِيعَادِ ۗ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةِ وَيْحِي مَنْ حَيَّ عَن بَيْتَةِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)﴾

[سورة الأنفال]

من اعتمد على غير الله فقد احتقر نفسه :

لذلك أنت حينما تعتمد على قوي من أجل أن يحميك فقد أشركت، حينما تنتازل لقوي من أجل أن تكف شره عنك فقد أشركت، هذا الذي حصل، هؤلاء الذين قعدوا عن نصره دينهم، ماذا فعلوا؟ خافوا من الأقوياء فأتروا السلامة.

فلذلك الآية الكريمة: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني أقوى إنسان بالأرض لو تجمعت في أحداً أو عية دماغه قطرة دم لا تزيد عن رأس دبوس يُصاب بالشلل، هذا القوي يعبد من دون الله؟

﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا مخلوق، وحياته بيد الله، واستمرار حياته بيد الله، وإمداد مقومات حياته بيد الله، هذا لا يُعبد من دون الله، وأنت أيها المؤمن لمجرد أن تُجبر لمخلوق تُحسب عليه، تنتمي إليه، وتنسى ربك، فقد احتقرت نفسك أنت الله، لا تكن خطيئة إنسان قوي ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

﴿أَقْمِنْ يَخْلُقْ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (17)﴾

[سورة النحل]

﴿أَقْمِنْ كَانَ مُؤمناً كَمَنْ كَانَ قاسِباً ۗ لَا يَسْتَوُونَ (18)﴾

[سورة السجدة]

من تنازل لقوي واعتمد عليه فقد أشرك بالله عز وجل :

الإنسان مهما كان عظيماً، عظمته، وهيبته، وكيانه منوط بسببولة دمه، فإذا تجمد الدم في عروقه مات فوراً، يقول لك: مات بجلطة مفاجئة، احتشاء بعضلة القلب، سكتة قلبية، وإذا نمت خلاياه نمواً عشوائياً يقول لك: ورم خبيث، ليس له دواء، وإذا توقف قلبه مات فوراً، فالإنسان ضعيف، بثانية يكون شخصاً فيصبح خبيراً، الآن النوعات بالطريق أصحابها أشخاص، أحدهم طبيب، والآخر مهندس، والثالث عميد أسرته، والرابع له رتبة عسكرية عالية، لما أصبح اسمه على النوعة صار خبيراً، مساء يكون مدفوناً وانتهى الأمر، طويت صفحته.

فهذا الذي يموت يُعيد من دون الله؟ هذا الذي يُخلق ولا يُخلق، يعيد من دون الله؟.

﴿أَيُّشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي إذا كان سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم يقول لنا:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)﴾

[سورة الأعراف]

وفي آية ثانية:

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشْداً (21)﴾

[سورة الجن]

لأنفسه ولا لغيره، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، وفي آية ثالثة:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)﴾

[سورة هود]

هذا الإنسان، لذلك لما تو في رسول الله - عليه الصلاة والسلام - سيدنا الصديق أحب أصحابه إليه، قال:

((فقال: أما بعد، فمن كان منكم يُعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يُعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ.))

[صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس]

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ إذا إنسان له أتباع كثر، وكان قوياً بيده كل شيء، وتوفاه الله، أتباعه ماذا يستطيعون أن يقدموا له؟ برقية تعزية، باقة ورد، هذا كل شيء، بيد من حياتك؟ بيد من موتك؟ بيد من رفعتك؟ بيد من سلامتك؟ بيد من سعادتك؟ بيد من شقاؤك؟ بيد من رزقك؟

الاعتماد على غير الله مذلة :

أيها الإخوة، لازلنا في آيات التوحيد .

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ طبعاً هؤلاء الشركاء يحتمل أن يكونوا أحد نوعين: إما أن يكونوا من بني البشر، شخص قوي علق الأمل عليه، أو من الحجر "صنم"، المعنى واحد .

﴿قَالَ اتَّعْبُدُونَ مَا تَدْعُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96)﴾

[سورة الصافات]

إذاً: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ لما سيدنا إبراهيم كسر الأصنام وضع الفأس في عنق أحدها، أو أكبرهم:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرٌ هُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64)﴾

[سورة الأنبياء]

إخواننا الكرام، بأي عصر هناك مجموعة أو هام يجب أن تتحرر منها، الآن أحد أكبر هذه الأوهام: الإعلام، أحياناً يورجى لك المعركة المنتهية، والعكس هو الصحيح، فيطولنك أيها المؤمن ألا تكون ضحية الإعلام، الإعلام خبيث جداً، تعتم على خسائر العدو، تعتم غير معقول.

لذلك: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194)﴾

[سورة الأعراف]

شخص يخاف كما تخاف، ويجوع كما تجوع، ويعرى كما تعرى، ويعطش كما تعطش، ويتمنى أن تدوم حياته طويلاً كما تتمنى، إنسان مثلك، لا يليق بك أن تكون لإنسان، أنت للواحد الديان، أنت لله، لمجرد أن تكون لإنسان فقد احتقرت نفسك، أنت لله .

ومما جاء في الآثار القدسية في الكتب السماوية السابقة: خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقته من أجلي فلا تلعب، فيحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك.

الشرك الخفي أخطر شيء يقع به الإنسان :

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ} قد تحمّل على أنهم من بني البشر، أحياناً إنسان يعتمد على قريب له قوي، أو على قريب له غني، أو على إنسان يبده الحول والطول، يعيده من دون الله وينسى ربه، وأخطر شيء أن تقع في الشرك الخفي، الشرك الخفي كما قال الله - عز وجل -:

{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُ هُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) }

[سورتيوسف]

هذا هو الشرك الخفي، الصحابة الكرام على علو قدرهم، وعلى رفعة شأنهم وعلى أنهم نخبة البشر، في حينين نظروا إلى العدد عشرة آلاف صحابي، فقالوا: لن نغلب من قلة، اعتمدوا على عددهم فلم ينتصروا، فقال الله عز وجل:

{ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْبَثَكُمْ كَتَّرَ تَكْمَ فُلْمَ نَعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) }

[سورةالتوبة]

التولي والتخلي :

أنت أيها المؤمن في حاجة ماسة إلى هذا الدرس درس بدر، ودرس حنين، في درس بدر قال الصحابة: الله، فتولا هم الله، وفي حنين قالوا: نحن، فتخلي الله عنهم. فأنت أيها المؤمن بين التولي والتخلي، تقول: أنا ومع التفصيل: أنا معي شهادة عليا، مرة طبيب أخ كريم ببلد عربي شقيق، حدثني بهذه القصة، زوجته حامل، ويحتاج إلى عمل معقد قليلاً للولادة، فاستشار صديقاً له متخصص بالأمراض النسائية، فأعطاه توجيهات، فقال له: هل من الأفضل أن أرى طبيباً آخر كي أستأنس؟ قال له: أنا أقوى وأعلم إنسان في هذه المنطقة، والباقون جهلة، بغطرسة واستعلاء ما بعده استعلاء، القصة طويلة لكن ملخصها أن هذا الطبيب الذي أشرك مع الله - عز وجل - وصف نفسه بأنه أعلم العلماء، ارتكب خطأ في الولادة أدى إلى وفاة المرأة، يترفع عنه طالب الطب، ولأول مرة في تاريخ هذا البلد العربي سحبت شهادة هذا الطبيب وأصبح بلا شهادة عقاباً له. تقول: أنا، الله يؤدبك، قل الله، ادرس، تفوق، لكن قل بفضل الله، الله أكرم مني، سمح لي، مكنتني، وفقني، انسب الفضل إلى الله، هذه الحقيقة، فإذا أعجبت بنفسك، بعلمك، بمالك، قال: الدرهم مرأهم، هذه آية أم حديث؟ حديث باطل.

والله صديق لي، قال: الدرهم مرأهم تحل بها كل المشكلات، وجد نفسه فجأة في المنفرة، ثلاثة وستون يوماً، تفضل حلها بالدرهم، معك درهم، الله يؤدب، انتبهوا، إياك أن تشرك نفسك مع الله، لا تقول أنا أحمل شهادة عليا، أنا من أعرق أسرة، كلما قلت أنا تخلي الله عنك، وكلما قلت الله تولاك بالرعاية والحفظ.

على الإنسان ألا يعلق آماله على إنسان مثله بل يتوكل على الواحد الديان :

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ} كن مع الله

{فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ} أحياناً تعلق آمالاً كبيرة على صديق لك قوي بمنصب رفيع، تدخل عليه، لا يقول لك تفضل اجلس، ويعتذر عن خدمتك، لأنك وضعت ثققتك بغير الله، هذا هو الشرك الخفي، لا تعتمد على مالك، ولا على جاهك، ولا على نسيك، ولا على حسبك، ولا على أسرته، ولا على أولادك. أعراف شخصاً عنده شاب بذل من أجله الغالي والرخيص، حتى جعله يحمل أعلى شهادة، وسافر إلى بلاد بعيدة، تزوج امرأة ونسي أباه، ولا يتصل به بالسنوات مرة، اعتمد عليه فتخلي عنه.

((لو كنت مُتَّخِذًا مِنَ الْعِبَادِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صُحْبَةً وَإِخَاءً إِيْمَانٌ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا عِنْدَهُ))

[الطبري عن بعض آل أبي سعيد بن المعلى]

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ} فإذا كان هؤلاء الشركاء أشخاصاً اعتمدت عليهم، أو على و عدهم، ومشكلة المسلمين الأولى أنهم اعتمدوا على القوى الكبيرة في الأرض ليحموهم، لينصروهم، فأمرنا وعصاهم الغليظة أن تدمرهم، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تشرك بالله وتفوز، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن توحده وتخسر.

{ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) }

[سورةالشعراء]

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ} أحد الولاة وصل إلى بيت الله الحرام قال: أريد عالماً جليلاً التقى به، فالتقى مع عالم، قال له: سلني حاجتك، قال له: والله إنني أستحي وأنا في بيت الله أن أسأل غير الله، فالتقى به خارج بيت الله الحرام، قال له: سلني حاجتك؟ قال له: والله ما سألتها من يملكها، أسألها من لا يملكها؟ قال له: ما حاجتك؟ قال له: أنقذني من النار وأدخلني الجنة، قال له: هذه ليست لي، قال له: إذا ليست لي عندك حاجة.

بين سيدنا عمر و جيلة بن الأيهم :

أنت حينما توحدهم ك الله، حينما توحدهم لا تتضعض أمام قوي أو غني، أنت حينما توحدهم لا تنبطح، لا ترعك، لا تسجد له، أنت حينما توحدهم لا تساوهم على مبادئك، كلمة لا . سيدنا عمر جاءه ملك اسمه جيلة، أعلن إسلامه، ورحب به عمر، أثناء طوافه حول الكعبة بدوي داس طرف رداؤه، فانخلع رداؤه عن كتفه، فصر به ضربة هشت أنفه، شكاه إلى عمر، استدعاه عمر، وجرى حوار بينهما، قال له:

أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟

دقق ملك وإنسان بالمصطلح المعاصر من الدهماء، من سوقة الناس، من الطبقة الدنيا، من هؤلاء الضعاف الفقراء .

قال له: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟

قال: لست ممن ينكر شيئاً أنا أدبت الفتى أدركت حقي ببديا .

قال له: أرض الفتى -سيدنا عمر - لا يد من إرضائه، ما زال ظفرك عالقا بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، -يخاطب ملك، حق -، وتنال ما فعلته كفك .

طبعاً تعجب أشد العجب هذا الملك!

قال له: كيف ذاك يا أمير؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخز النجم أرساً؟

قال له: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبداً .

قال: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني .

قال عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه كل صدع فيه يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصلعوك تساوئ .

من وحّد الله عز وجل أكد مكانته الإنسانية :

أنت حينما توحدهم لا تخاف في الله لومة لائم، أنت حينما توحدهم تقول: لا يملء فمك، يقاموسك يوجد كلمة لا، تقولها بملء فمك، أما إن لم تكن موحداً يقذف الله الخوف في قلبك، تقول: نعم لكل شيء، للباطل، أنت حينما توحدهم تؤكد مكانتك الإنسانية، أنت لست لغير الله، أنت لله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

أما إذا فهمنا هذه الشراكيات، ليست بشر أبلى حجراً، تأتي هذه الآية:

﴿لَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَلَمْ يَشْرِكْ أَهْلُكُمْ ثُمَّ كَيْدُونَ فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ (195)

[سورة الأعراف]

الصنم يتحرك؟ لك أن تعتقد أن هذا الشيء الذي أشرك مع الله إنسان قوي، دولة طاغية قوية، تلتئم رضاهم مع تنازلات لأحتتمل، أو أنه صنم كما كان العرب قبل الإسلام.

الإيمان اعتماد على الله وتوكل عليه واتصال به :

أيها الإخوة الكرام :

﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (196)

[سورة الأعراف]

الإيمان: اعتماد على الله، الإيمان: توكل على الله، الإيمان: اتصال بالله، الإيمان: طاعة لله، الإيمان: أن تعتز بالله .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتزرت بمن يموت فإن عزك ميت

لا أنسى أن الحسن البصري كان عند والي البصرة - هذا التوحيد - فجاءه توجيه من الخليفة، لو نفذه لأغضب الله - عز وجل -، ولو لم ينفذه لأغضب الخليفة، هذا الوالي وقع بما يُسمى بحيص بيبص، ماذا يفعل؟ فاستنجد بالحسن البصري، قال له: ماذا أفعل؟ قال له كلمة والله أيها الإخوة تعد منهاجاً، قال له: إن الله يمنك من يزيد، لكن يزيد لا يمنك من الله

الله يمنك من أقوى الأقوياء، لكن أقوى الأقوياء لا يستطيع أن يمنك من ورم خبيث، إن الله يمنك من يزيد، لكن يزيد لا يمنك من الله.

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذا الدرس .

والحمد لله رب العالمين